

shariatallah.org

الملحق 2: الختان والمسيحي

الختان: وصية تكاد جميع الكنائس تعتبرها ملغاة

من بين جميع وصايا الله المقدسة، يبدو أن الختان هو الوصية الوحيدة التي تعتبرها جميع الكنائس تقريبًا، عن طريق الخطأ، ملغاة. وقد شاع هذا الإجماع إلى حد أن حتى الخصوم العقائديين السابقين—مثل الكنيسة الكاثوليكية والطوائف البروتستانتية (جمعية الله، والسبتيون، والمعمدانيون، والمشيخيون، والميثوديون، وغيرهم)—إلى جانب جماعات تُصنَّف كثيرًا على أنها طوائف، مثل المورمون وشهود يهوه، يزعمون جميعًا أن هذه الوصية أُلغيت عند الصليب.

لم يعلّم يسوع قط إلغاءها

ثمة سببان رئيسيان لانتشار هذا الاعتقاد بين المسيحيين، رغم أن يسوع لم يعلّم قط مثل هذا المذهب، وأن جميع رسل يسوع وتلاميذه أطاعوا هذه الوصية—بمن فيهم بولس، الذي كثيرًا ما يستخدم القادة كتاباته «لإعفاء» الأمم من هذا الشرط الذي وضعه الله نفسه.

ويحدث هذا مع أنه لا توجد نبوءة في العهد القديم تشير إلى أن شعب الله—سواء أكانوا يهودًا أم من الأمم—سيُعفى من طاعة هذه الوصية عند مجيء المسيح. في الواقع، كان الختان مطلوبًا دائمًا، منذ زمن إبراهيم فصاعدًا، من كل رجل أراد أن يكون جزءًا من الشعب الذي أفرزه الله للخلاص، سواء أكان من نسل إبراهيم أم لا.

الختان علامة العهد الأبدي

لم يكن يُقبل أحد ضمن الجماعة المقدسة (المفرزة عن سائر الأمم) ما لم يخضع للختان. وكان الختان العلامة الجسدية للعهد بين الله وشعبه المكرَّم.

وعلاوة على ذلك، لم يقتصر هذا العهد على زمن محدد أو على ذرية إبراهيم البيولوجية، بل شمل أيضًا جميع الغرباء الذين أرادوا الاندماج رسميًا في الجماعة وأن يُعَدّوا متساوين أمام الله. وقد صرّح الرب بوضوح: «وهذا ينطبق لا على المولودين في بيتك فحسب، بل أيضًا على العبيد المولودين في الخارج الذين اشتريتهم. سواء وُلِدوا في بيتك أم اشتريتهم بمالك، يجب أن يُختنوا. ويكون عهدي في لحمكم عهدًا أبديًا» (التكوين 17:12-13).

الأمم واشتراط الختان

لو لم تكن الأمم بحاجة حقًا إلى هذه العلامة الجسدية كي تصبح جزءًا من الشعب الذي أفرزه الرب، لما كان هناك سبب لأن يشترط الله الختان قبل مجيء المسيح لا بعده.

لا سند نبويًا للتغيير

لكي يصح هذا، لكان ينبغي أن توجد معلومات بهذا الشأن في النبوءات، ولكان يسوع قد أخبرنا بأن هذا التغيير سيحدث بعد صعوده. لكن لا يوجد في العهد القديم أي ذكر لإدراج الأمم في شعب الله يشير إلى أنهم سيُعفون من أي وصية، بما فيها الختان، لمجرد أنهم ليسوا من ذرية إبراهيم البيولوجية.

سببان شائعان لعدم طاعة وصية الله هذه

السبب الأول: الكنائس تعلّم خطأً أن وصية الختان أُلغيت

إن السبب الذي يدفع الكنائس إلى تعليم أن شريعة الله بشأن الختان أُلغيت—**من دون تحديد مَن يُزعم أنه ألغاه**—يكمن في صعوبة تنفيذ هذه الوصية. ويخشى قادة الكنائس أنهم إذا قبلوا الحقيقة وعلّموها—أي إن الله لم يصدر قط أي تعليمات بإلغائها—فسيخسرون كثيرًا من الأعضاء.

وبوجه عام، تنفيذ هذه الوصية غير مريح بالفعل. لطالما كان الأمر كذلك، وما زال كذلك. وحتى مع التقدم الطبي، يتعين على المسيحي الذي يقرر طاعة هذه الوصية أن يعثر على مختص، ويدفع التكاليف من ماله الخاص (إذ إن معظم خطط التأمين الصحي لا تغطيها)، ويخضع للإجراء، ويتعامل مع المتاعب التي تعقب الجراحة، ويتحمل الوصمة الاجتماعية، ويواجه غالبًا معارضة من العائلة والأصدقاء والكنيسة.

شهادة شخصية

يجب أن يكون الرجل مصممًا حقًا على طاعة وصية الرب حتى يمضي فيها؛ وإلا فسوف يتخلى عنها بسهولة. فالتشجيع على ترك هذا الطريق وفير. وأعرف ذلك لأنني **خضعت لهذا الأمر شخصيًا في سن الثالثة والستين، حين اختُنت طاعةً للوصية.**

السبب الثاني: سوء فهم التفويض أو الإذن الإلهي

السبب الثاني، وهو بالتأكيد السبب الرئيسي، هو أن الكنيسة لا تفهم التفويض أو الإذن الإلهي فهمًا سليمًا. وقد استغل إبليس هذا الفهم الخاطئ منذ وقت مبكر، إذ بدأت، بعد بضعة عقود فقط من صعود يسوع، نزاعات على السلطة بين قادة الكنيسة، وانتهت إلى الاستنتاج السخيف بأن الله فوّض إلى بطرس وخلفائه المزعومين سلطة إجراء أي تغييرات يشاؤون على شريعة الله.



ما إن عاد يسوع إلى الآب حتى بدأ إبليس يؤثر في قادة الكنيسة ليُبعدوا الأمم عن وصايا الله الأبدية.

وامتد هذا الانحراف إلى ما هو أبعد بكثير من الختان، فأثّر في وصايا أخرى كثيرة في العهد القديم، وهي وصايا أطاعها يسوع وأتباعه بأمانة دائمًا.

السلطة على شريعة الله

بتأثير من إبليس، تجاهلت الكنيسة حقيقة أن أي تفويض لسلطة على شريعة الله المقدسة لا بد أن يصدر مباشرة من الله نفسه—إما عن طريق أنبيائه في العهد القديم أو عن طريق مسيحه.

ومن غير المعقول أن يمنح بشرٌ محض أنفسهم سلطة تغيير أمر عزيز على الله مثل شريعته. لم يحذرنا أي نبي للرب، ولا يسوع، قط من أن الآب سيمنح، بعد مجيء المسيح، أي جماعة أو فرد، سواء أكان داخل الكتاب المقدس أم خارجه، القدرة أو الإلهام لإبطال وصاياه أو إلغائها أو تعديلها أو تحديثها، حتى أصغرها. بل على العكس، صرّح الرب بوضوح بأن هذا سيكون خطيئة جسيمة: «لا تزيدوا على الكلام الذي أنا أوصيكم به ولا تنقصوا منه، بل احفظوا وصايا الرب إلهكم التي أنا أوصيكم بها» (التثنية 2:4).

فقدان الفردية في العلاقة مع الله

الكنيسة وسيطًا غير مقصود

ومن القضايا المهمة الأخرى فقدان الفردية في العلاقة بين المخلوق والخالق. فلم يكن من المفترض قط أن يكون دور الكنيسة وسيطًا بين الله والإنسان. لكنها تولت هذا الدور في وقت مبكر من العصر المسيحي.

وبدلًا من أن تكون علاقة كل مؤمن بالآب والابن علاقة فردية، تحت إرشاد الروح القدس، أصبح الناس معتمدين كليًا على قادتهم ليخبروهم بما يسمح به الرب أو يحرّمه.

تقييد الوصول إلى الأسفار المقدسة

نشأت هذه المشكلة الخطيرة إلى حد كبير لأن الوصول إلى الأسفار المقدسة، حتى إصلاح القرن السادس عشر، كان امتيازًا مقصورًا على رجال الدين. وكان يُمنع عامة الناس صراحةً من قراءة الكتاب المقدس بأنفسهم، بحجة أنهم عاجزون عن فهمه من دون تفسير رجال الدين.

تأثير القادة في الناس

الاعتماد على تعاليم القادة

مرّت خمسة قرون، وعلى الرغم من أن الوصول إلى الأسفار المقدسة أصبح متاحًا للجميع، لا يزال الناس يعتمدون حصرًا على ما يعلّمه قادتهم—صوابًا كان أم خطأً—ولا يقدرون على أن يتعلموا بأنفسهم ويعملوا بصورة مستقلة بما يطلبه الله من كل فرد.

ولا تزال التعاليم الخاطئة نفسها عن وصايا الله المقدسة والأبدية، التي كانت قائمة قبل الإصلاح، تتناقلها معاهد اللاهوت التابعة لكل طائفة.

تعليم يسوع عن الشريعة

بحسب علمي، لا توجد مؤسسة مسيحية واحدة تعلّم قادتها المستقبليين ما علّمه يسوع بوضوح: أن أي وصية من وصايا الله لم تفقد صلاحيتها بعد مجيء المسيح: «فإني الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض، لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الشريعة حتى يتم كل شيء. فمن تجاهل إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلّم الناس هكذا، يُدعى الأصغر في ملكوت السماوات، أما **من عمل بها وعلّمها، فهذا يُدعى عظيمًا في ملكوت السماوات**» (متى 5:18-19).

طاعة جزئية في بعض الطوائف

الالتزام الانتقائي بوصايا الله

تسعى طوائف قليلة إلى تعليم أن وصايا الرب صالحة إلى الأبد، وأن أي كاتب في الكتاب المقدس بعد المسيح لم يكتب قط ما يناقض هذه الحقيقة. لكنها، لسبب غامض، تقيّد قائمة الوصايا التي لا تزال ملزمة للمسيحيين.

وعادةً ما تشدد هذه الطوائف على الوصايا العشر (بما فيها السبت، اليوم السابع الذي تذكره الوصية الرابعة) وأحكام الطعام الواردة في اللاويين 11، لكنها لا تتجاوز ذلك.

تناقض الانتقائية

والأكثر إثارة للدهشة أن هذا الانتقاء بعينه لا يصحبه أي تعليل واضح يستند إلى العهد القديم أو إلى الأناجيل الأربعة، يشرح لماذا تظل هذه الوصايا المحددة سارية، بينما لا تُذكر وصايا أخرى، مثل المحافظة على الشعر واللحية، وارتداء tzitzit، أو الختان، ولا يُدافع عنها.

وهذا يثير السؤال: إذا كانت جميع وصايا الرب مقدسة وعادلة، فلماذا نختار أن نطيع بعضها دون سواها؟

العهد الأبدي

الختان علامة العهد

الختان هو العهد الأبدي بين الله وشعبه، أي جماعة من البشر المقدسين المفروزين عن سائر الناس. وقد ظل هذا الباب مفتوحًا للجميع دائمًا، ولم يقتصر قط على ذرية إبراهيم البيولوجية، كما يظن بعضهم.



تُظهر لوحة من القرن الخامس عشر للفنان جيوفاني بيليني يسوعَ وهو يُختن على يد أحبار، ويصحبه يوسف ومريم.

ومنذ اللحظة التي جعل الله فيها إبراهيم أول فرد من هذه الجماعة، شرع الرب الختان علامةً ظاهرة وأبدية للعهد. وكان واضحًا أن ذريته الطبيعية، وكذلك الذين ليسوا من نسله، يحتاجون إلى هذه العلامة الجسدية للعهد إن أرادوا أن يكونوا جزءًا من شعبه.

كتابات الرسول بولس حجة لعدم طاعة شرائع الله الأبدية

تأثير مرقيون في قانون الكتاب المقدس

كانت إحدى أقدم المحاولات لجمع الكتابات المختلفة التي ظهرت بعد صعود المسيح على يد مرقيون (85 - 160 م)، وهو مالك سفن ثري عاش في القرن الثاني. وكان مرقيون من أتباع بولس المتحمسين، لكنه كان يبغض اليهود.

وكان كتابه المقدس يتألف أساسًا من كتابات بولس وإنجيله الخاص، الذي يعدّه كثيرون نسخة منتحلة من إنجيل لوقا. رفض مرقيون جميع الأناجيل والرسائل الأخرى، واعتبرها غير موحى بها. وحذف من كتابه المقدس جميع الإشارات إلى العهد القديم، إذ علّم أن الله قبل يسوع ليس هو الله نفسه الذي بشّر به بولس.

رفضت كنيسة روما كتاب مرقيون المقدس وأدانته بوصفه هرطوقيًا، لكن نظرته إلى كتابات الرسول بولس باعتبارها وحدها موحى بها من الله، ورفضه العهد القديم بأكمله وأناجيل متى ومرقس ويوحنا، كانا قد أثّرا بالفعل في معتقدات كثير من المسيحيين الأوائل.

أول قانون رسمي للكنيسة الكاثوليكية

تطور قانون العهد الجديد

اعتُرف رسميًا بأول قانون للعهد الجديد في أواخر القرن الرابع، أي بعد نحو 350 عامًا من عودة يسوع إلى الآب. وكان لمجامع الكنيسة الكاثوليكية في روما، وهيبو (393) وقرطاج (397)، دور محوري في إقرار الأسفار السبعة والعشرين للعهد الجديد التي نعرفها اليوم.

وكان لهذه المجامع دور أساسي في تثبيت القانون لمواجهة التفسيرات والنصوص المتنوعة المتداولة في الجماعات المسيحية.

دور أساقفة روما في تشكيل الكتاب المقدس

إقرار رسائل بولس وإدراجها

أُدرجت رسائل بولس في مجموعة الكتابات التي أقرّها أساقفة الكنيسة في أواخر القرن الرابع، بعد أكثر من ثلاثمائة عام من عودة يسوع إلى السماء. وكان هؤلاء الأساقفة رجالًا عاديين مثل أيّ واحد منا، وليسوا أنبياء أرسلهم الله. وأصبحت المجموعة، التي تعتبرها الكنيسة الكاثوليكية مقدسة، تُعرف باسم Biblia Sacra باللاتينية، وTὰ βιβλία τὰ ἅγια (ta biblia ta hagia) باليونانية، أي «الكتب المقدسة». وهذه حقيقة تاريخية ينبغي لكل مسيحي أن ينظر فيها بجدية.

وبعد قرون من الجدل حول الكتابات التي ينبغي أن تشكّل القانون الرسمي، اعترف أساقفة الكنيسة بقداسة أسفار العهد القديم، والأناجيل الأربعة، وسفر أعمال الرسل (المنسوب إلى لوقا)، والرسائل إلى الكنائس (بما فيها رسائل بولس)، وسفر الرؤيا الذي كتبه يوحنا. وكان البشر هم الذين جمعوا هذه الكتابات معًا في مجموعة واحدة وأعلنوا قداسة المجموعة بأكملها. إن وجود رسائل بولس إلى جانب كلمات أنبياء الله وتعاليم يسوع في الكتاب نفسه لا يعني أن الله منح بولس السلطة نفسها التي منحها لأنبيائه أو لابنه نفسه.

استخدام العهد القديم في زمن يسوع

من المهم أن نلاحظ أن جميع اليهود في زمن يسوع، بمن فيهم يسوع نفسه، كانوا يقرؤون الأسفار المقدسة العبرية وحدها ويستشهدون بها في تعاليمهم. وكان كثير من اليهود الناطقين باليونانية يقرؤونها في النسخة اليونانية من النص، المعروفة باسم الترجمة السبعينية، التي جُمعت قبل المسيح بنحو ثلاثة قرون.

تحدي تفسير كتابات بولس

التعقيد وسوء التفسير

أُدرجت كتابات بولس، شأنها شأن كتابات مؤلفين آخرين عاشوا بعد يسوع، في الكتاب المقدس الرسمي الذي أقرته الكنيسة منذ قرون كثيرة، ولذلك تُعدّ من أسس الإيمان المسيحي.

لكن المشكلة لا تكمن في بولس، بل في تفسير كتاباته. فقد كُتبت رسائله بأسلوب معقد وصعب، وكان هذا التحدي معروفًا حتى في زمنه (كما يذكر 2 بطرس 16:3)، حين كان السياق الثقافي والتاريخي لا يزال مألوفًا للقراء. أما تفسير هذه النصوص بعد قرون، وفي سياق مختلف تمامًا، فيزيد الأمر صعوبة.

مسألة السلطة والتفسيرات

قضية سلطة بولس

لا تتمثل القضية المحورية في أهمية كتابات بولس، بل في المبدأ الأساسي للسلطة ونقلها. وكما أوضحنا سابقًا، فإن السلطة التي تنسبها الكنيسة إلى بولس لإلغاء وصايا الله المقدسة والأبدية أو إبطالها أو تصحيحها أو تحديثها لا يدعمها الكتاب المقدس الذي سبقه. لذلك، لا تأتي هذه السلطة من الرب.

ولا توجد نبوءة في العهد القديم أو الأناجيل تشير إلى أن الله سيرسل، بعد المسيح، رجلًا من طرسوس ينبغي للجميع أن يصغوا إليه ويتبعوه.

مواءمة التفسيرات مع العهد القديم والأناجيل

ضرورة الاتساق

وهذا يعني أن أي فهم أو تفسير لكتابات بولس يكون خاطئًا إذا لم يتوافق مع الإعلانات التي سبقته. لذلك، يجب على المسيحي الذي يخاف الله وكلمته حقًا أن يرفض أي تفسير للرسائل—سواء أكان من بولس أم من أي كاتب آخر—لا يتفق مع ما أعلنه الرب بواسطة أنبيائه في العهد القديم وبواسطة مسيحه يسوع.

التواضع في تفسير الكتاب المقدس

ينبغي للمسيحي أن يتحلى بالحكمة والتواضع ليقول:
«لا أفهم هذه الفقرة، والتفسيرات التي قرأتها خاطئة لأنها لا تستند إلى أنبياء الرب ولا إلى الكلمات التي نطق بها يسوع. سأتركها جانبًا إلى أن يشرحها لي الرب يومًا ما، إن شاءت مشيئته».

امتحان عظيم للأمم

امتحان للطاعة والإيمان

قد يُعدّ هذا أحد أهم الامتحانات التي اختار الرب أن يفرضها على الأمم، وهو امتحان يشبه ما واجهه الشعب اليهودي في رحلته إلى كنعان. وكما جاء في التثنية 2:8: «وتذكّر كل الطريق الذي سار بك فيه الرب إلهك في البرية هذه الأربعين سنة، لكي يذلّك ويمتحنك، فيعرف ما في قلبك، هل تحفظ وصاياه أم لا».

تمييز الأمم المطيعين

في هذا السياق، يسعى الرب إلى تمييز الأمم المستعدين حقًا للانضمام إلى شعبه المقدس. وهم الذين يقررون طاعة جميع الوصايا، بما فيها الختان، على الرغم من الضغط الشديد من الكنيسة وكثرة المقاطع في الرسائل إلى الكنائس التي توحي ظاهريًا بأن عدة وصايا—وُصفت بأنها أبدية في الأنبياء والأناجيل—قد أُلغيت عن الأمم.

ختان الجسد والقلب

ختان واحد: جسدي وروحي

من المهم أن نوضح أنه لا يوجد نوعان من الختان، بل نوع واحد فقط: الختان الجسدي. وينبغي أن يكون واضحًا للجميع أن عبارة «ختان القلب»، المستخدمة في الكتاب المقدس كله، مجازية محضة، مثل عبارتي «قلب منكسر» أو «قلب فرح».

وعندما يقول الكتاب المقدس إن شخصًا ما «أغلف القلب»، فهذا يعني ببساطة أن هذا الشخص لا يعيش كما ينبغي، أي بوصفه شخصًا يحب الله حقًا ومستعدًا لطاعته.

أمثلة من الكتاب المقدس

بعبارة أخرى، قد يكون هذا الرجل مختونًا جسديًا، لكن أسلوب حياته لا يتوافق مع الحياة التي يتوقعها الله من شعبه. وقد أعلن الله على لسان النبي إرميا أن إسرائيل كلها كانت في حالة «الغلف القلب»: «لأن جميع الأمم غلف، وكل بيت إسرائيل أغلف القلب» (إرميا 26:9).

ومن الواضح أنهم جميعًا كانوا مختونين جسديًا، لكنهم، إذ ارتدوا عن الله وهجروا شريعته المقدسة، حُكم عليهم بأنهم غلف القلب.

وجوب الختان الجسدي وختان القلب

يجب أن يُختن جميع أبناء الله الذكور، سواء أكانوا يهودًا أم من الأمم، لا جسديًا فحسب، بل في القلب أيضًا. ويتضح ذلك في هذه الكلمات الصريحة: «هكذا قال السيد الرب: لا يدخل مقدسي أي غريب، سواء أكان ممن يقيمون بين بني إسرائيل أم لا، ما لم يكن مختونًا في جسده وقلبه» (حزقيال 9:44).

استنتاجات أساسية

1. ظل مفهوم ختان القلب موجودًا دائمًا، ولم يُستحدث في العهد الجديد بديلًا عن الختان الجسدي الحقيقي.
2. الختان مطلوب من جميع المنتمين إلى شعب الله، سواء أكانوا يهودًا أم من الأمم.

الختان والمعمودية بالماء

استبدال زائف

يعتقد بعضهم خطأً أن المعمودية بالماء شُرعت للمسيحيين بديلًا عن الختان. لكن هذا الادعاء محض اختلاق بشري، ومحاولة للتهرب من طاعة وصية الرب.

لو صح هذا الادعاء، لتوقعنا أن نجد مقاطع في الأنبياء أو الأناجيل تشير إلى أن الله لن يعود، بعد صعود المسيح، يطلب الختان من الأمم الراغبة في الانضمام إلى شعبه، وأن المعمودية ستحل محله. لكن لا وجود لمثل هذه المقاطع.

أصل المعمودية بالماء

وعلاوة على ذلك، من المهم أن نلاحظ أن المعمودية بالماء تسبق المسيحية. فلم يكن يوحنا المعمدان «مخترع» المعمودية ولا «رائدها».

الأصول اليهودية للمعمودية (المِكْوَه)

المِكْوَه طقس للتطهر

كانت المعمودية، أو المِكْوَه، طقسًا راسخًا للاغتسال بالتغطيس بين اليهود قبل زمن يوحنا المعمدان بوقت طويل. وكانت المِكْوَه ترمز إلى التطهر من الخطية والنجاسة الطقسية.



مِكْوَه قديمة (أو ميكفاه) استخدمها اليهود للتطهر الطقسي، وتقع في مدينة فورمس بألمانيا.

عندما كان أحد الأمم يُختن، كان يخضع أيضًا للمِكْوَه. ولم يقتصر هذا الفعل على التطهر الطقسي، بل رمز أيضًا إلى الموت—أي «الدفن» في الماء—لحياته الوثنية السابقة. وكان خروجه من الماء، الذي يذكّر بالسائل الأمنيوسي في الرحم، يرمز إلى ولادته من جديد لحياة جديدة بوصفه يهوديًا.

يوحنا المعمدان والمِكْوَه

لم ينشئ يوحنا المعمدان طقسًا جديدًا، بل أعطى معنى جديدًا لطقس قائم. فبدلًا من أن «يموت» الأمم وحدهم عن حياتهم السابقة و«يولدوا من جديد» يهودًا، دعا يوحنا اليهود الذين يعيشون في الخطية إلى أن «يموتوا» و«يولدوا من جديد» أيضًا، تعبيرًا عن التوبة.

لكن هذا الاغتسال لم يكن بالضرورة حدثًا يقع مرة واحدة. كان اليهود يغتسلون بالتغطيس كلما صاروا نجسين طقسيًا، مثلًا قبل دخول الهيكل. وكانوا أيضًا، وما زالوا اليوم، يغتسلون بالتغطيس في يوم كيبور كعمل توبة.

التمييز بين المعمودية والختان

الأدوار المختلفة للطقوس

لا يسند الكتاب المقدس ولا الممارسة اليهودية التاريخية فكرة أن المعمودية حلت محل الختان. فالمعمودية (أي المِكْوَه) كانت وما زالت رمزًا ذا معنى للتوبة والتطهر، لكنها لم تُقصد قط بديلًا عن الختان، وهو العلامة الأبدية لعهد الله.

ولكل من الطقسين غايته ودلالته الخاصة، ولا ينفي أي منهما الآخر.